هل امبراطور المانيا مجنون

كتب الدكتور كالب الصليبي نزيل انكلترا مقالة في هذا الموضوع في مجلة السترانند الانكليزية كان لها وقع عظيم لانهُ بناها على صورة رآها في مدينة مونخ يتضح منها عقل مصورها وعلى اقوال اشهر الثقات الباحثين في الامراض العقلية قال فيها ما خلاصتهُ

مضت سنون كثيرة والذين يوثق بعلمهم يشكُّون في سلامة عقل امبراطور المانيا اما الآن فصار لهذا الموضوع شأن كبير يهمُّ الناس اجمع وانتقل البحث من معرض النظر في افواله الى معرض النظر في افعاله التي ازجت اوربا في هذه الحرب ولم تقتصر اوامرهُ على قتل المحاربين بل تناولت اغتيال السكان الآمنين في منازلهم

ولقد كنت اهتمُّ بهذا الموضوع كلما قرأت عن حالة الامبراطور العقلية ثم زاد اهتمامي بما رأيت في مدينة مونخ سنة ١٩١٣ اذ ذهبت اليها للاشتراك في عيد وغنر كما سيجيء ويضاف الى ذلك ما درستهُ على استاذي السر توماس كلوستون من حوادث الجنون الكثيرة وما رأيتهُ في البارستان الملكي قرب ادنبرج وفي ملجأ يورك الذي كان جدي الدكتور كالب وليمس يعالج المجانين فيهِ مدة خمس وثلاثين سنة وبنى على معالجتهم كتابهُ في مسؤلية المجانين المجرمين

وتظهر اهمية هذا الموضوع من انهُ ان كان امبراطور المانيا مجنوناً فهو غير مسؤل عمَّا يفعل فلا يؤاخذ مثلاً باغراق الباخرة لوزيتانيا مع انهُ لو كان في مكانهِ رجل عاقل لحُكم عليهِ بانهُ قاتل وعوقب بالقتل

ولكن مسألة مهمَّة مثل هذه لا يحق لاحد ان يبدي فيها حكماً ولو كان طبيباً ما لم يكن قد تعلَّم علم الامراض العقلية ومارسهُ زمناً طويلاً ولذلك لا اتوخَّى الاَّ تلخيص ما اجابني بهِ بعض الثقات المشهورين الذين يعتمد على اقوالهم واحكامهم في هذه المسألة في محالس القضاء مضيفاً اليهِ ما رأيتهُ بنفسي في مدينة مونخ

والاطباء الذين كتبت اليهم سائلاً عمَّا يرونهُ في هذا الموضوع لا يستطيعون ان يذيلوا آراءهم باسمائهم لان آداب صناعتنا تحظر ذلك على الطبيب الذي يمارس صناعتهُ ونعم ما تفعل ولم اتجاسر انا على اظهار اسمي الاَّ لانني ابطلت ممارسة الطب . ومن الثقات الذين كتبت اليهم طبيب مشهور ولعلهُ اشهر اطباء الامراض العقلية استحسن هذا البحث واسف لانهُ لا

يستطيع ان يكتب فيهِ بالاسهاب وختم كتابهُ بقولهِ « ارجح ان في عقل الامبراطور شيئاً من الخلل واوكد انهُ مجرم »

وهذه الكلمات قليلة بسيطة ولكن الطبيب الذي قالها هو اكبر ثقة في هذا الموضوع ولا اظن ان الحكم الاخير يمكن ان يكون ادق من حكمهِ هذا او اقرب منهُ الى الصواب

واما الآن مستندان من اقوى المستندات كتبا بعد ما شهرت الحرب ويليق بي ان استشهد بهما الاول ما قالهُ الدكتور مورتن برنس في كتابهِ عن امبراطور المانيا وحالتهِ العقلية فقد قال ان هذا الامبراطور خطب في السبع والعشرين سنةً التي مرَّت منذ تبوَّأ عرش المُلك خطباً عديدة يجد فيها الباحثون في الامراض العقلية اموراً كثيرة تستحق الالتفات . من ذلك انهُ لم يستشهد في كل خطبهِ بشعرهِ غيتي » شاعر الالمان المشهور ولو مرةً واحدة ولكنهُ كان يستشهد دوماً باسلافهِ من آل هوهنزلرن وبينهم كثيرون من المجانين . ثم ان خطبهُ كلها تتضمن كراهة المبادىء الديموقراطية واحتقارها مع ان الديموقراطيين يؤلفون الآن ثلث الشعب الالماني . وهذا الهوس متسلط على عقلهِ وهو مفعم بالغيظ والخوف وفيهِ ما يدفعهُ الى نفثهما دواماً فيتفجران منهُ تفجراً ومن ثم كثرت محاكمة الذين يقال انهم اهانوهُ وقويت سلطتهُ وسلطة الفريق الحربي في المانيا . ولكن ما سبب هذا البغض والغيظ المتسلطين على عقلهِ

والجواب انهُ يخيَّل الآن مخيلاً نفسهُ قوانين المتمدنين فانهُ يدَّعي ان لهُ سلطة مطلقة ممنوحة لآل هوهنزلرن من الله تعالى لا من الشعب . وهو لا يدَّعي هذه الدعوى احتيالاً بل يعتقد صحتها وعندهُ انهُ متسلط على شعبهِ بحق الهي وان كل ما لشعبهِ من الحقوق انما هو منحة منهُ . ولذلك قال « اني انظر الى الشعب الذي سلَّمهُ الله اليَّ كمنحة يطالبني بها وعليَّ ان ازيد الميراث الذي سأقدم عنهُ حساباً يوماً ما ولذلك اضطرُّ ان اسحق كل الذين يعارضونني »

والثاني مقالة في « الغيظ » قرأها الدكتور حارب في الشتاء الماضي في المجمع الطبي العقلي وقال فيها ان الرجل من اهالي ملقًّا قد يعربد فيخرج الى الشوارع فيخاصم ويضرب ويقتل . ويحدث مثل ذلك في بلدان اخرى وقد يصاب بهذا الجنون جمهور كبير من الناس دفعةً واحدة كأنهُ ينتشر بينهم بالعدوى حتى لقد تصاب بهِ امَّةٌ برمتها فتصير خطراً كبيراً على العمران . وفي التاريخ اخبار كثيرة عن ملوك وولاة اصيبوا بهذا النوع من الجنون ولاسيما اذا كانوا مصابين بداء الصرع فأعدى بهِ اتباعهم وانصارهم ونكَّدوا بالناس اشد التنكيل .

ولكن كل ما ذكر عن اولئك الملوك والولاة لا يقابَل بما فعلهُ امبراطور المانيا الآن . وقد تجيز القوانين الدولية قتل الناس على هذه الصورة ولكن اهالي العصور المقبلة سيحرمونهُ حتماً. ثم ان حدوث حوادث كثيرة من هذا القبيل من آل هوهنزلرن يدلُّ على ان ما حدث الآن انما هو حادث عقلي مرضي مثل الحوادث التي سبقتهُ ويستحيل ان يرضى الناس باعادتهِ مرةً اخرى ».

ولا شبهة في صحة هذا الرأي فان شهوات الغيظ والبغض والخوف متى قامت في انسانٍ متفانٍ في حب نفسهِ فقد تفضي الى افعال جنائية ان لم تكن من نوع الجنون الجنائي . فان جنون العظمة (المغالومانيا) او النخوة والخفخفة تستوجب المزء ولكنهُ قد يفضي الى ارتكاب الجرائم ومن ثم تدعو الحال الى تقييد بعض مختلي الشعور لدفع اذاهم عن انفسهم وعن غيرهم . واذا اشتد الخوف بالمصابين بجنون العظمة فقد يفعلون افعالاً تتجاوز مقدارها يوبخهم وتمهُ بلاداً يرمتها مع انهُ يتعذر الحكم بانهم مجانين فعلاً لان بين العقل والجنون درجات يلتبس فيها الواحد بالآخر حتى يصعب التفريق بينهما . والرتب العالية والاطراء والتملُّق قد تنفخ محبي العظمة حتى يختل بها شعورهم واذا حدث حينئذٍ ما يدعوهم الى امتشاق الحسام فقد يثيرون لظى حرب تحرق الاخضر واليابس

في شهر سبتمبر من سنة ١٩١٣ دخلت البيت الذي كان لنيخ المصور الالماني المعظم يقيم فيهِ في مدينة مونخ وكانت زوجتهُ لا تزال ساكنة في جانب منهُ الاَّ انها كانت غائبة حينئذٍ . وكان دليلي احدى السيدات من بلاط امبراطور النمسا فارتني كثيراً من الصور البديعة التي صوَّرها لنيخ وبينها كثير من صور بسمارك ومن صور اولاد لنيخ نفسهِ . ثم دخلتُ بي غرفة صغيرة وهي تبسم واذا انا بصورة مثل خربشة الدجاج يصور الطفل صوراً احسن منها وتحتها بحروف واضحة اسم « ولهلم » امبراطور المانيا ذاهُ صوَّرها واهداها الى لنيخ لكي يعرضها بين صوره البديعة حاسباً انها تضاهيها . وعندي ان هذه الصورة اصدق شهادة على حالتهِ العقلية

وانا لا اعتقد انهُ مجنون ولكنني اعتقد انهُ مصاب بمرض حب النفس فان ظهور الجنون في بعض اشكالهِ لا يستلزم ظهورهُ فيهِ . وعسم ذراعهِ الناتج عمَّا اصيب بهِ من شلل الاطفال لا يدلُّ على حالتهِ العقلية الاَّ من حيث كونهُ يؤلم من كان شديد الاعجاب بنفسهِ مثلهُ ويعرضهُ دائماً للاحتدام غيظاً

اما الجنون فلا ارى وجهاً لنسبتهِ اليهِ لانني ارى في انتظام اعمالهِ ما يخرجهُ من طبقة المجانين ولو قُسِم لهُ ان يكون تاجراً او مؤلفاً للشركات لافلح في ذلك لكنهُ شبَّ وشاب في

يشة لا يسلم فيها الانسان من الزلل ولاسيما اذا كان محبًّا بنفسه محبًّا للتملق . فقوي فيه العُجب الى حد المرض والاضرار بالغير ومن كان في منصبه وفي احواله لا بدَّ ان تأخذ منهُ الخيلاء كل مأخذ ولو كان مرقص اوريوس[1] فهو من هذا القبيل معذور بعض العذر لانهُ منفعل بالفواعل التي احاطت به فتسلطت عليه ومع ذلك لا ابرئهُ من المسؤولية الادبية بل اعدُّهُ من أكبر المجرمين واودُّ ان يعاقب كذلك . انتهى

ثم قالت مجلة الستراند انها عرضت هذه المقالة على اثنين من اكبر الثقات في هذا الموضوع الاول الدكتور ارمسترنج جونس مدير بيمارستان كليبري ومدرس علم الامراض العقلية في مستشفى مار برثلماوس فسمح لها ان تنشر رأيهُ واسمهُ . والثاني طبيب آخر لا يقولهُ احد في هذا العلم فكتب اليها برأيه ولكنهُ فضل الاَّ ينشر اسمهُ

قال الاول طالعت المقالة البديعة التي كتبها الدكتور صليبي وانا اوافقهُ على ان هذه المسألة مهمة جدًّا ولا يحق لاحد ان يبدي فيها حكماً ما لم يكن قد درس علم الامراض العقلية ومارسهُ زمناً طويلاً . وان البحث في هذا الموضوع لم يعد امراً نظريًّا خصوصيًّا بل صار امراً عمليًّا عموميًّا يهمُّ الامم كلها لكي يُعلَم مَن هو الملوم في هذه الحرب الكبرى ولكي يعلم مقدار مسؤوليته

لا يخفى على الخبيرين ان الحد بين العقل والجنون غير واضح فالطرفان البعيدان يمتازان كل الامتياز احدهما عن الآخر واما الطرفان القريبان فيتماسان حتى يتعذر الفرق بينهما اي يصعب ان يعرف اين ينتهي العقل و يبتدئ الجنون لاسيما وان احوال الانسان تختلف من وقت الى آخر فان كل احد يفعل احياناً افعالاً تبعد عن مقتضى العقل والفطنة ولاسيما في سن الصغر حتى يعذر الصغار على افعال يفعلونها لا يعذر عليها الكبار لو فعلوها . بل العمل الواحد الذي يستحسن في سن من سني الحياة قد يعدُّ جنوناً في سن اخرى . والجنون فنون واسعة النطاق جدًّا رأى الباحثون اصولها في غرائز الانسان ولكنها لا تنمو ما لم تكتنفها تربة صالحة لنموها اي ما لم يكن العقل ميَّالاً الى التمييز والعُجب ومحبة الذات . ونمو الغرائز ولاسيما غريزة حفظ الذات يميل بالمرء الى الخُلق الذي يظهر امتيازهُ به فاذا تمَّ العقل نموًّا صحيحاً نشأ سليماً يتولى ارشاد الغرائز بمساعدة قوانين الآداب والقدرة الصالحة . ويراد بالعقل السليم قوة الحكم والتمييز او استخدام المعلومات السابقة في الاحوال الحاضرة . والعقل السليم هو

---

(١) امبراطور روماني مشهور بفسقه وكرم أخلاقه

الذي يجعل المرء يعترف بما عليه لغيره ويحترم حقوق الناس . وقد قال هربرت سبنسر « ان الغرائز التي يترتب عليها خير الامم والافراد ينتج عنها حفظ النفس » وهي تشمل الاحترام الواجب للامم والعمل بما بينها من العهود والمحالفات وتوجب مجاملة الجميع ورفع شأن الانسانية . ويغير ذلك لا يمكن ان يكون للامم أمن وسلام . فهل بدا من الامة الالمانية او من امبراطورها شيء من الاحترام لهذه الامور . والجواب كلا . ومتى اعترفت الغرائز كما يحدث في العقول المالة او الخلل بما لخلل لا صحة لها او لمؤثرات قوية اثرت في الجدانة زاد الخلل العقلي حتى اذا بلغ اشدهُ صار الحجر على صاحبه امراً واجباً . ولا فائدة ان يُطلَب من المصاب بهذا الخلل ان يستعمل عقلهُ لان العقل يكون قد فقد قوة تمييز المؤثرات الخارجية او الجمع بينها والحكم على نتائجها ولا بدَّ حينئذٍ من حدوث ما لا تحمد عقباهُ

ان تعليم بسمارك لهذا الامبراطور في حداثته قوَّى في نفسه ايحاس الشر من عدو وهمي والاستعداد للايقاع به وهذا العدو الوهمي هو بلادنا . ثم ان اعتقاد آل هوهنزلرن بان لهم حقًّا الهيًّا وازدياد هذا الاعتقاد بما في عروق هذا الامبراطور من دم آل ستورت جعلاهُ يعتقد بتأييد الله لهُ حتى شمَّ العالم دعواهُ في كل محفل بانهُ شريك لله وتوخيهُ الوصول الى ما وصل اليهِ نبوليون من المجد والسؤدد . ثم ان عبثهُ بالعهود التي وقَّعها مع دول اخرى لحفظ البلجيك وذهابهُ الى المغرب الاقصى قصد اغاظة فرنسا واقتحامهُ مرفأ أغادير تحدياً لها واختيارهُ بتشبيهه نفسهِ باتلاً ملك المون كل ذلك دليل على طمع وعتوّ متمكنين من نفسهِ وبالغين حد الجنون . وقد سمي هذا النوع من الجنون باسم پارانو يا[1] والمصابون بهِ لا يدخلون كلهم البيمارستانات . وقد يكون منهم اناس من النوابغ واصحاب الذرائع الوقادة ومدَّعي القداسة والنبوَّة والذين يتصوَّرون انهم يستطيعون العروج الى القمر او غيره من الكواكب . والغالب انهم اصحاب عزيمة صادقة ولكن الصفة الكبرى التي يمتاز بها المصابون بالپارانويا هي الانانية وهي حالة نفسية باطنية ولكن تتخذ صفة دينية . وبهذا تفسَّر دعاوي امبراطور المانيا الدينية التي يجاهر بها من وقت الى آخر فان عقلهُ غير موزون فلا ينتقد نفسهُ ولا يحتمل ان ينتقده غيرهُ ومن ثم اقام القضايا الكثيرة على الذين انتقدوهُ . وهذه الحالة العقلية تستمرُّ معها لقيت من المقاومة الى ان يجد صاحبها نفسهُ ضمن جدران البيمارستان حيث يقضي على امانيهِ ولعل هذا البيمارستان يكون الآن جزيرة القديسة هيلانة

(١) Paranoia والكلمة يونانية ومعناها بلا فكر وهي نوع مزمن من الجنون الحص اعراضهِ كثرة الوهم وقد يبقى صاحبهُ سليم العقل من وجوه كثيرة . والانذار فيهِ رديء جدًّا

اما الطبيب الذي فضّل ان لا يشير اسمهُ وهو لا يفرقهُ طبيب آخر في الدنيا كلها في هذا الموضوع فختم كتابهُ بقولهِ

ان هذه المسألة تعرض دوامًا على الاطباء كما قلتم في كتابكم ولاسيما الاطباء الذين يعالجون الامراض العقلية . والامر الاول الذي يجب الالتفات اليهِ هو تحديد الجنون فان الثقات مختلفون في ذلك والاكثرون الآن على ان الجنون يقاس بافعال المرء لا بالادلة العقلية . وقد مضى عليَّ اكثر من عشرين سنة وانا اقول اني انتظر ان تحدث رزايا كبيرة من تصرُّف امبراطور المانيا الخارق حدود العقل بانيًا قولي هذا على الامور التالية

اولاً انهُ من اسرة ظهر الجنون فيها وقد احاط بهِ المتملقون ولا يظهر انهُ يملك قيادة نفسهِ

ثانيًا ان الذي يعالج المجانين زمانًا طويلاً يستطيع ان يردَّ جنون الكثيرين منهم الى نمو زائد في حاسَّة من حواسهم الطبيعية . فالغَيْرة قد تزيد حتى تتولَّد منها اعراض يخشى شرها . وايجاس الشر من الغير قد يصير ما يسمَّى بجنون الاضطهاد . والحذر قد ينتهي بجنون الشك folie de doute وهلمَّ جرًّا

ثالثًا قيل ان الذين يولدون صمًّا او يغريهم الصمم في حداثتهم يصيرون اما من اصحاب الظنون فيعتقدون ان الناس يتقولون عليهم الاقاويل لانهم لا يسمعون كلامهم او يصيرون من المعجبين بانفسهم لانهم لا يسمعون احدًا يعترض عليهم

ولا شبهة ان كل هؤلاء معرضون للخلل العقلي

فاذا التفتنا الى امبراطور المانيا ورأينا المتملقين يحيطون بهِ وهو من المقدرة على جانب عظيم لم يتعذَّر علينا ان نعرف سبب اعجابهِ بنفسهِ وزد على ذلك انهُ غير قادر على انتقاد اعمالهِ . واعتقادهُ بانهُ يعرف كل شيء يدلُّ على خلل في قوة التمييز . لكن كل ما تقدم لا يوجب ان يكون مجنونًا . ولا شبهة في ان اعمالهُ لا تنطبق على القواعد الادبية المرعية . واذا قيل هل هو مجنون او مجرم فالحكم في اي الرجلين هو صعب جدًّا . فلو فعل رجل من الرعايا فعلهُ فسبَّب موت آخر لعومل معاملة مجنون مجرم وسجن في سجن المجانين المجرمين

قال مودسلي[1] ان البعض جنونهم اشد من شرهم والبعض شرهم اشد من جنونهم والفريق الاول حري بالشفقة والثاني بالعقاب . انتهى

---

(١) Maudsley عالم فسيولوجي كان رئيس المجمع الطبي السيكولوجي في بلاد الانكليز واستاذ الطب الشرعي في جامعة لندن وتحرير مجلة العلوم العقلية . ومن اشهر مؤلفاتهِ فسيولوجية العقل وباثولوجيتهُ ومسؤولية المصابين بالامراض العقلية

صورة الانف بعد العملية

صورته قبلها

نقتطف يونيو ١٩١٦
أمام الصفحة ٥١١